مع غزّة

لنا عبد الرحمن
لنُقاوِم كلٌّ بطريقته

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أيام العدوان على غزّة وكيف أثّر على انتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «وضع العدوان على غزّة الانسانية على المحكّ وكشف زيف الشعارات»، تقول الكاتبة اللبنانية المصرية

بطاقة

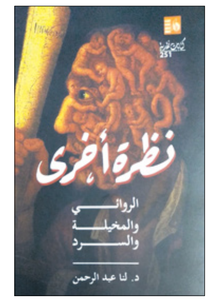

كاتبةٌ وأكاديمية لبنانية مصرية من مواليد بيروت عام 1975، وتُقيم في القاهرة. من إصداراتها في القصّة: «أوهام شرقية» (2003) و«الموتى لا يكذبون» (2020)، وفي الرواية: «حدائق السراب» (2006) و«تلامس» (2008) و«ثلج القاهرة» (2018)، وفي النقد الأدبي: «نظرة أخرى: الروائي والمخيّلة والسرد» (2017) و«شاطئ آخر: قراءات نقدية في الرواية العربية» (2019) و«متعة السرد والحكاية: إضاءة على روايات عالمية» (2020).

القاهرة ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلكِ هذه الأيام في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

طوال الوقت أفكّر كيف يمكن إيقاف ما يحدث، وكيف بمقدور العالم أن يُشاهد كلّ هذا الموت والدمار من دون أن يتحرّك لإنقاذ الأطفال والنساء وكل الأبرياء العزّل الذين يموتون بلا ذنب، سوى رغبة محتلٍّ في إبادة شعب بأكمله. لكن لا يمكن للهوية الأصلية أن تُباد أو تنتهي، لأنّها الكينونة الموجودة في هواء فلسطين، في ذرّات التراب، في اللهجة الفلسطينية، في الأغنيات، في أطباق الطعام، في غصن الزيتون، في شاطئ غزّة، في النساء اللواتي تجلس الواحدة منهنّ بجانب ركام بيتها، تحتضن طفلها وتقاوم الموت حتى اللحظة الأخيرة. لذا لو ظلّ فلسطيني واحد على هذه الأرض سوف تظلّ فلسطين. لقد اعتاد الفلسطينيون على مواجهة عدوّ شرس، لكنّ العدوان على غزّة هذه المرّة هو الأكثر شراسة وقسوة، وقد وضع الإنسانية كلّها على المحك، وكشف زيف الشعارات.

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

منذ وقعت الحرب، توقّفت عن الكتابة الإبداعية، ما زلت أحسُّ بعجز عن العودة إلى إيقاع الحياة السابق، أمارس مهام الحياة اليومية الضرورية وأنا أدرك أنّ ثمّة شيئاً مروّعاً يحدث هناك. في كلّ نهار أتابع الأخبار وأنتظر وقوع معجزة تُوقف هذه المأساة. تشغلني كثيراً رؤية الأهالي الأبرياء، كيف يواجهون الحياة وسط كلّ هذا الدمار والموت والخراب. أفكّر في الأطفال كثيراً، في الأمّهات الثكالى، والنساء المنكوبات، والرجال العجائز والعزّل؛ ووسط كلّ هذا لا أستطيع منع ذكريات الاجتياح الإسرائيلي لبيروت التي عشتها في الماضي من أن تنثال في ذاكرتي بلا توقّف، مستحضرة معها معاناة بعيدة مرّت أثناء سنوات الطفولة. لذا أكثر ما يبكيني هُم الأطفال، لأنّي أعرف أنّهم لن ينسوا أبداً صوت القذائف والنيران وما عاشوه في الحرب، مهما تقدّم بهم العمر.

■ إلى أي درجة تشعرين أن العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّال في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

«في البدء كانت الكلمة»، سوف يظلّ لأيّ عمل إبداعي قوّته في مواجهة حرب الإبادة، لأنّ الكلمة تعني الذاكرة. إنّه يسجّل ما يحدث الآن ليكون وثيقة مهمّة للغد، للأجيال القادمة. الحروب تنتهي، لكن الكلمات تبقى. ومن حكايات الصمود والمقاومة التي وصلت إلينا عبر الروايات

> ما زلت أحسُّ بعجز عن العودة إلى إيقاع الحياة السابق

> يظلّ لأيّ عمل إبداعي قوّته في مواجهة حرب الإبادة

> الكلماتُ اختياري لمواجهة قُبح العالم وغياب ضميره

والقصائد والأغنيات والأفلام تعلّمنا الكثير، ووثّقنا عرى مبادئنا وقناعاتنا، لذا علينا جميعاً أن نقاوم، كلٌّ بطريقته.

■ لو قُيّض لكِ البدء، من جديد، هل ستختارين المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

أنحاز إلى الكلمات، إنها اختياري الحقيقي للتعبير عن نفسي، ولمواجهة قبح العالم وغياب ضميره.

■ ما هو التغيير الذي تنتظرينه أو تريدينه في العالم؟

أفكّر كثيراً في كلّ المفاهيم التي تتعلّق بالعدالة والمساواة، وأجد أنّها غائبة تماماً أمام ما يجري من موت ودمار في غزّة، وكأنّ العالم كله معميٌّ عما يحدث. إنّنا نعيش الآن في عالم رأسمالي، متغوّل، تسوده اللغة النفعية بصورة قاتلة، وهذا واضح في شتّى مسالك الحياة، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ما أدّى إلى اختلال في موازين القيم الإنسانية والمبادئ الأخلاقية والرؤية الرحيمة لعلاقة الإنسان مع الإنسان ومع كلّ ما حوله من مخلوقات أخرى. وإن لم يحدث أيّ تعقّل رشيد ينقذ الإنسان من شرّ نفسه، فإنّ الطوفان قادم لامحالة وبأشكال مختلفة، خلال متابعتي لأحداث العدوان على غزّة، مرّ خبرٌ يقول إنّ «إسرائيل» تستعين بروبوتات للقيام بالاجتياح البرّي. مثل هذا الخبر يحكي الكثير عن الموت القادم الذي يهدّد الجميع، إن لم نتمكّن من إيقافه.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودين لقاءها، وماذا ستقولين لها؟

«غاندي» شخصيّة إبداعية مقاومة، بسبب تفانيه في السعي نحو العدالة والحرية، إذ رغم استخدامه المقاومة السلمية، نجح في تحقيق العديد من الأهداف السياسية والاجتماعية، مثل استقلال الهند عن الاستعمار البريطاني. أحبُّ أن أسمع منه حكاية ليله الطويل، حتى أشرق صباح الحرية على بلده.

■ كلمة تقولينها للناس في غزّة؟

مع مرور كلّ يوم نتعلّم منكم الكثير، في كلّ التفاصيل التي تتعلّق بالحياة ومقاومة آلة الموت العشوائي أنتم السادة.. أنتم الصامدون بنبل، ترسلون حكايتكم إلى العالم كلّه مع كلّ شهيد تسقط قطرات دمه على أرض الوطن، ومع دمعة كلّ طفل يتيم، وصرخة كلّ صبية تحكي بلوعة عمّا شاهدته عيناها من فظائع الحرب.

■ كلمة تقولينها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

أدرك أنّك تقاوم بقلبك وعقلك وكلمتك، وقرارك بالمقاطعة. أدرك أنك تتمنّى من كلّ قلبك النصر لأهل غزّة، وأنك مكبّل وعاجز عن فعل أي شيء، لكن حسبي أنّك واعٍ لكلّ ما يحدث حولك. هذا أضعف الإيمان في هذه المرحلة القاتمة.

لنا عبد الرحمن

■ حين سئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان: ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي». ماذا تقولين لدارين ولأطفال فلسطين؟

يا دارين الغالية.. أنا أخاطبك من الغد، وأقول لك إنّك سوف تكبرين وتكونين فتاة قوية لديها أحلام كثيرة، وستكونين فتاة تحكي حكايتها للعالم، ورسولة الطفولة لأجيال قادمة. هذا العدوان سينتهي يوماً، لكن أنتِ وصديقاتك باقيات، لأنكنّ الحقيقة النقية والمستمرّة.

مشهد

عن غزّة التي تقرأ في كلّ أحوالها

الكتاب في زمن الإبادة

لا تتخلّى غزّة عن الكتاب حتى في ذروة حرب الإبادة، وهو ما توكّده مبادراتٌ عديدة؛ آخرها إتاحة منصّة «ابجد» محتواها مجّاناً لأهل القطاع

يزن التميمي

قبل قرابة شهر ونصف شهر، وفي اليوم الـ157 من الإبادة، نشرت المدوّنة والناشطة الغزّية بيسان عودة مقطعاً في حسابها على «إنستغرام»، تُوثّق فيه فرحتها بالعثور على بعض الكتب التي اشترتها من بسطة كتب أقيمت ارتجالاً، بعد أن قصفت مروحيّات الاحتلال إحدى المكتبات في خانيونس.

بيسان، الحكواتية التي اكتسبت شهرتها قبل الإبادة الجماعية من خلال «بودكاست» وفيديوهات تروي فيها قصصاً عن فلسطين ومدنها وبالأخصّ غزّة، تقول في ذلك المقطع إنها أخيراً و«بعد مئة وسبعة وخمسين يوماً من الإبادة الجماعية في غزّة، وبعد أن تركتُ منزلي ومكتبتي، وجدت بعض الكتب»، حيث التقطتْ من تلك البسطة، التي تبيع محتويات مكتبة قصفتها مروحيّات الاحتلال قبل ذلك بساعات، كتابَين، أحدهما جديد والآخر صادر عام 1964. ليس هناك الكثير من الخيارات المُتاحة، وليست لدى بيسان وأمثالها من شباب غزّة الشغوفين بالقراءة والاطلاع رفاهية اختيار موضوع الكتاب، أو التصنيف الذي ينتمي إليه، فمقياسها لاختيار الكتب: أن يكون جديداً دون صفحات ناقصة، أي أن يكون قد نجا من ضربة قذيفة مباشرة، أو أن يحمل تفصيلاً مُميّزاً، كأن يكون تاريخ صدوره قديماً، فيكون كقطعة «أنتيكا». تُضيف بيسان: «قبل هذا العدوان، كنتُ أقرأ كتاباً على الأقل كلّ أسبوع»، وأنها قد خلّفت وراءها «مكتبة ضخمة» لا تعرف مصيرها الآن، ثم تَعِد متابعيها، وهي لا تستطيع أن تُخفي فرحتها العارمة بهذه اللُّقيا الغالية، أن تُخبرهم برأيها بالكتابَين حين تُتمّ قراءتهما كما كانت تفعل قبل العدوان، وفي أيام أقلّ وحشيّة من اليوم. بيسان ليست وحدها التي حرمتها الحرب من أعزّ عاداتها، القراءة، حيث يمكن أن تكون القراءة السلوى الوحيدة في هذا الوقت المُستقطع الخارج من الزمان، المرهون بالمقادير، الذي لا يُفيد فيه اجتهادٌ ولا سعيٌ، ويعزّ أثناءه ما يساعد على التحمّل وانتظار النجاة، وإبقاء الروح المعنوية عالية كما نصحت الشهيدة شيرين أبو عاقلة.

وقبل قرابة أسبوع، أشار الكاتب والمترجم الغزّي أنس أبو سمحان، عبر حساباته على وسائل التواصل الاجتماعي، إلى حديث كثيرين داخل مخيّمات النازحين في قطاع غزّة عن قلّة الكتب المتاحة أو صعوبة تحميلها بصيغة الكترونية، وذلك لسوء شبكة الاتصال في المناطق التي يوجدون فيها. استغلّ أبو سمحان منصّته ليسأل مُتابعيه عمّن يمكن أن يوصل هذه الشكاوى إلى القائمين على تطبيق «أبجد»، وهو تطبيق عربي وموقع للقراءة الإلكترونية يُمكن مستخدميه من تصفّح آلاف الكتب العربية والمترجمة، من خلال اشتراك شهري. لم تمضِ سوى أيام حتّى أعلن القائمون

> يمكن للقراءة أن تكون السلوى الوحيدة في هذا الوقت

على «أبجد» استلامهم المقترح، مؤكّداً أنه «سيبدأ في التفكير والبحث عن حلول تُسهّل القراءة على أهلنا في غزّة»، قبل أن يُعلن، الخميس الماضي، إتاحته «كُودا» (GazaRead) خاصّاً يمكّن كلّ سكّان القطاع من الوصول إلى أكثر من 25 ألف كتاب تحتويها قاعدة بيانات الموقع مجانًا طيلة ثلاثة أشهر.

وقد وجّه فريق الموقع تحيّة إلى أهل غزّة جاء فيها: «سلام لمن فقدوا أحبّاءهم ودورهم وذكرياتهم، طالما كان الكتاب أنيساً وسلاحاً وسلاماً ومواساة. تضامناً مع أحبّائنا في أرض الزيتون الغالية، واستجابة لمطلب أشقّائنا الغاليين، عكف فريقُنا بالكامل لمُدارسة الأمر وكيفيّة تلبيته، وخرجنا بذلك القرار: أبجد مجّاني في كلّ مناطق القطاع». على بساطة هذه المبادرة، فإنّها تلفت من جهة إلى طبيعة المجتمع الغزّي وسعيه الدؤوب للتشبّث بأسمى مظاهر الحياة، بينما يُواجِه مصيراً مجهولاً حيث تُمارَس ضدّه كلّ جرائم الحرب، ومن جهة أخرى تُشير إلى رغبة الطبقات الشعبية في البلاد العربية لأن يكون لها دور، ولو رمزيّاً، في مساندة الغزّيين والوقوف معهم، مع غياب الدور الفاعل والمؤثّر لمؤسّسات النظام العربي الرسمي.

(كاتب فلسطيني مُقيم في ألمانيا)

طفلة تحتضن كتبها بعد أن دمّر العدوان منزلها في خانيونس، 24 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 (Getty)

قراءة

باب الطباشير محاولة اختراع واقع آخر
حلقاتٌ عراقية تُعيد نفسها

يتعرّض التاريخ في هذه الرواية لتدخّل الفنتازيا. هناك لعب بالتواريخ وبالأحداث، بحيث يمكننا القول إنّ الروائي يخترع تاريخاً كاملاً للعراق

عباس بيضون

«باب الطباشير»، الرواية الصادرة في طبعتها الرابعة عن «دار الجمل» للكاتب العراقي أحمد سعداوي، الحائز الجائزة العالمية للرواية العربية عام 2014 عن روايته «فرانكشتاين في بغداد». الرواية، التي تحمل أيضاً في عنوانها «سبع تعاويذ سومرية للخلاص من العالم»، هي مثل سابقتها ذات أسلوب فنتازي.

لكن هذه ليست خالصة لهذا الأسلوب، فهو يتمّ في موازاة مع تاريخ العراق الحديث، منذ سقوط الرئيس الراحل صدّام حسين حتى زمن الرواية، مع ذلك، فإنّ تاريخ العراق الذي يحتفظ هنا بمراحله الأساسية من ديكتاتورية صدّام، إلى غزو «داعش»، إلى حكم الميليشيات والحرب الأهلية، يتعرّض هنا لتدخّل الفنتازيا. هناك لعبٌ بالتواريخ وبالأحداث، بحيث يمكننا القول إنّ الروائي يخترع تاريخاً كاملاً للعراق.

في رواية سعداوي لا ينتهي حُكم صدّام في الوقت الذي انتهى فيه، ولا يحافظ الروائي على مسار التاريخ الذي يتبع هذا السقوط. هنا نعثر على تاريخ آخر، نصادف في الرواية انقلاباً عسكرياً وتفشّياً للبوذية في العراق، وخروج أغلبية الشعب العراقي من بلدها إلى الخارج، ركيزته في ديترويت بالولايات المتّحدة، بينما تبقى الأغلبية تحت ديكتاتورية الشركات في العراق. الدولة الباقية تحت جناح الأكثرية المقيمة في أميركا. نحن هكذا أمام تاريخ مصنوع ومخترَع، بل إنّ لعبة الفنتازيا لا تبقى عند حدود الوصايا السومرية، إنها أيضاً لعب بالتاريخ نفسه. لكنّنا، مع هذا التغريب لا نزال نشعر أن للفنتازيا هنا طبعة التاريخ الحقيقي. كأنّ اللعب هنا، بل والتخييل، يصدران عن الواقع نفسه. الواقع يُخلّف هكذا ما يوازيه من الخيال، والخيال يسير بمحاذاة الواقع الفعلي. في الفنتازيا إيقاع الواقع وتخييله، بل قد يتراءى لنا أنّ التخييل هنا أكثر صدقاً وحقيقية من الواقع.

مع ذلك، فإنّ الرواية، التي تقارب 400 صفحة، تغلي بالأحداث والمصادفات والشخصيات. إنّها في ذلك تكاد تكون ملحمة قائمة بذاتها، ملحمة، لا تزال الأحداث والتفاصيل تدور فيها حلقة بعد حلقة. الحلقات هذه تكاد تُعيد نفسها، وإن بصور أخرى. إنّها تُعيد نفسها لأنّ هكذا هو منطق الرواية، وهكذا هو مسار الوصايا السومرية.

نحن في مبتدأ الرواية أمام «جمعية المنتحرين»، هذه الجمعية ستبقى وصمتُها في الرواية على غلى ناجي شخصية الرواية الأولى، هو فيلسوف الحلقة ومؤسّسها، الفيلسوف هذا لا يزال ينتقل في أطوار التاريخ الحديث للعراق، منذ بدايته مذيعاً شمّاماً، إلى ترقيه مستشاراً للزعيم قائد الانقلاب، إلى عمله المتردّد في الحكومة الإقلّوية. هناك جنب علي ناجي الدكتور واصف، الذي هو، على نحو ما، نبيّ الرواية. إنّه فقيه سومري ومكتشف للوصايا السومرية، التي يؤلّفها سعداوي ولا يعود فيها إلى أيّ تاريخ محسوب. هناك أيضاً ليلى الحبيبة الممتنعة لعلي ناجي، شخصيات لكلّ منها دورات حياة. إنّها، بحسب الوصايا السومرية، تعبر من باب إلى باب، من حياة إلى حياة. هكذا نعثر على كلّ منها وهو، في حيواته العديدة، وهو في كلّ منها جديد أو مستجد.

كلّ منها يمرّ بأكثر من موت وأكثر من حياة، ويبقى مع ذلك على حاله وسمته، وإن باختلاف. هذا الدوران بين الحيوات، هو أيضاً دوران بين عوالم الأبواب السبعة، التي ألّفها سعداوي وأوجد لكلّ منها نصّاً مبتكراً، ترجمته السومرية رغم كون النصّ عربياً، وضعها لسبب لا نعلمه عالم باللغة السومرية. هنا يُصرّ سعداوي على إيجاد واقع، لما هو، في أصله، أقرب إلى السحر، بل هو سحر خالص، سحر الكلام، ولكن أيضاً سحر الأبواب المرسومة بالطباشير.

هكذا تدور رواية أحمد سعداوي بين التغريب والواقع، بين السحر والتاريخ، بل هي، في آن معاً، هذا وذاك. إنّها في إصرارها على السحر، لدرجة ترجمة الوصايا المخترعة إلى لغة سومرية حقيقية، كأنما تبني لنفسها واقعاً خاصّاً، كأنما تخترع تاريخاً، هو أيضاً، وبالدرجة نفسها، تاريخ حقيقي، بل هو يبدو كأنه يبني على الحقيقة حقيقته الخاصّة، يبني على التاريخ، ما يبدو لعبا مصنوعاً من مواد التاريخ، ومن عناصرها، كأنما يُحوّل التاريخ، وبمواده الأولى ومبانيه وسياقاته، إلى أسطورة، إلى سحر. تكون الفنتازيا عندئذ هذا اللعب بالتاريخ، تحويله إلى أدب، تحويله إلى إيقاع، وإلى تخييل وسحر.

(شاعر وروائي من لبنان)

> كأنّ اللعب هنا، بل والتخييل أيضاً، يصدران عن الواقع نفسه

طفلان عراقيان يُطلّان من اسفل باب منزل في بغداد، 31 آب/ اغسطس 2005 (Getty)

فعاليات

يحتضن «مسرح زقاق ـ الكرنتينا» في بيروت عند الثامنة والنصف مساءً، أيام الثالث والرابع والخامس من أيار/ مايو المُقبل، عرضاً مسرحياً بعنوان **حياة**. العمل من كتابة وأداء **أحلام الديراني** وإخراج **هاشم عدنان**، وهو يروي قصّة حكواتية من مدينة بعلبك اللبنانية تقضي حياتها في جمع قصص النساء.

ضمن ندوات «تنمية القطاع الزراعي الفلسطيني بين الاستعمار والعولمة والتحرير»، تُقيم «مؤسّسة الدراسات الفلسطينية»، اليوم عند الواحدة ظُهراً، لقاءً بعنوان **العمل الزراعي بين الهشاشة والجلَد في المناطق ج: قرية فروش بيت دجن نموذجاً**. من خلال مفهومَي «الهشاشة» و«الجلد»، تُحلّل الباحثة فيروز سالم تجربة المزارعين الفلسطينيين في قرية فروش بيت دجن شرقي نابلس.

تُختتم، مساء اليوم، في مدينة المنستير التونسية، فعاليات الدورة العاشرة من **مهرجان إيلاف الدولي للفنون والإبداع**، والتي افتتحت أوّل أمس. الدورة، التي تحمل اسم الشاعر التونسي الراحل **محمّد الغزّي** (1949 - 2024/ الصورة) تتضمّن عدداً من المحاضرات الفكرية والقراءات الشعرية والعروض الموسيقية والمعارض التشكيلية.

الشيخ عبد الكريم دالي: البُعد الفنّي والتاريخي والوطني عنوان ملتقى دولي يفتتح الخميس المقبل في «المسرح الوطني» بالجزائر العاصمة، ويستمرّ ثلاثة أيام. يشارك في الملتقى باحثون من الجزائر وخارجها بمداخلات عن تجربة المطرب الجزائري الراحل (1914 - 1978) وأعماله ومكانه في الموسيقى الأندلسية الجزائرية.